التكاثر المادي
وأثره في سقوط الأندلس

د / عبد الحليم عويس

الطبعة الأولى
١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م



دار الصحوة للنشر والتوزيع - القاهرة
الإدارة : ٧ ش السراى - أول المنيل ت . فاكس : ٩٨٧٩٢٤
الفرع : حدائق حلوان - بجوار عمارات المهندسين ت ٣٧٤٠٠٧١

بسم اللّه الرحمن الرحيم

ألهٰكم التكاثُر. حتى زُرتُمُ المقابر. كلا سوف
تعلمون. ثم كلا سوف تعلمون. كلا لو تعلمون
علم اليقين. لترَوُنَّ الجحيم. ثم لتـــرَوُنَّها
عَيْنَ اليقين. ثُمَّ لتُسألُنَّ يومئذٍ عَنِ النّعيم.

صدق اللّه العظيم

إهـداء

إلى المعتمد بن عباد... المنتظر... الذي يؤثر رعي الجمال في صحراء العرب... على رعي الخنازير في واشنطن وباريس!!

عبد الحليم عويس

كانت الدفعة الروحية والحضارية التي بدأت مع فتح الأندلس قد وصلت الى ذروتها . . .

وعلى الرغم من بعض الانحرافات في عهود الفتح والولاة والإمارة (٩٣-٣١٦هـ) فقد استطاعت الروح الاسلامية أن تعبر نحو ثلاثة قرون، وهي تعمق وجودها العقدي والحضاري حتى أصبحت عقيدة الإسلام هي الغالية، وأصبحت قرطبة «جوهرة العالم» . .

لقد وصلت الأندلس إلى هذه القمة قريبا من تلك الأيام التي أعلن فيها عبد الرحمن الناصر (٣٠٠-٣٥٠هـ) تحويل الأندلس من إمارة الى خلافة سنة (٣١٦هـ) . .

لقد شعر بأن الأندلس قد أصبحت دولة عظمى لا تليق بها كلمة إمارة، وقد كان من هيبتها في عهده أنها أصبحت تلعب بملوك الشمال الأسباني، وتتدخل في تعيين حكام نبرة وليون، كما أن هيبتها أيأست الفاطميين من الامتداد شمالا فاتجهوا إلى مصر تاركين بلاد المغرب لأبنائها حكام بني زيري الصنهاجيين.

-في هذه اللحظات الأندلسية الرائعة التي كانت الأندلس فيها دولة واحدة قوية بل خلافة قوية، وبينما كان الحكم بن عبد الرحمن الناصر يجاهد في سبيل تكوين أعظم مكتبة عرفها العالم كله -حسب علمنا- تتكون من أربعمائة ألف مجلد (١)- كان والده عبد الرحمن الناصر يتجه بفكره الى مجال آخر يظنه طريق المجد والعظمة، ويظنه الترجمة الضرورية والصحيحة المعبرة عن الواقع

(١) في مقابل ١٩٢ كتابا كانت هي أكبر عدد من الكتب ملكته كاتدرائية أوربية حتى ذلك التاريخ.

الرائع الذي تعيشه الأندلس في عهده..

وهكذا فبدلا من أن توجه النسبة الكبرى من ميزانية الدولة إلى الجهاد العقدي والعقلي وصناعة الحضارة والإنسان، وتمتد مساحات العقيدة والعلم والإبداع خارج قرطبة إلى بلاد المغرب والمشرق -قسم الناصر جباية الدولة على ثلاثة أثلاث: ثلث للجند، وثلث للبناء، وثلث مدخر (١).

كانت مصادر الثروة المادية في الأندلس كثيرة ومتنوعة، وكان من أهم المصادر المفضية إلى التكاثر المادي - سعة الأرض الأندلسية التي استولى عليها الفاتحون المسلمون الذين لم يزيدوا عن عشرات من الآلاف ساحوا ملوكا متوجين بالدين والحب في شبة جزيرة تبلغ مساحتها أكثر من ١٩٦,٠٠٠ ميل مربع.

وعن هؤلاء توارث الأخلاف من البربر والعرب، فنجحوا -أو نجح أكثرهم- في زيادة ثرواتهم، بينما لم ينجح إلا الأقلون في تنمية إيمانهم، بل مشت الثروة المادية في أكثر الأحايين في طريق مناقض للطريق الذي مشت فيه كتائب الإيمان والدعوة الإسلامية.

ومن الجدير بالذكر أن المعارك التي كان المسلمون يخوضونها في الأندلس لم تكن مع نصارى الشمال في ليون وقشتالة وحسب، بل كانت تتجاوزهما إلى مناطق في أعمال بلاد الغال (فرنسا) وإيطاليا وبريطانيا وغيرها، وإن في كثرة الغنائم التي كانوا يجمعونها ما يدل على أن الأمر كان أعظم مما تستطيعه بلاد الجلالقة الجبلية القاحلة (٢).

---

(١) ابن عذارى: البيان المغرب ٢/ ٢٣٠ نشر دار الثقافة تحقيق كولان وبروفنسال بيروت.

(٢) محمد سعيد الدغلي: الحياة الاجتماعية في الأندلس صـ٥٦ نشر سوريا طبعة أولى ١٤٠٤هـ

-ومن مجموع هذه الغنائم، ومن الثروات التي كانت تفيض بها بلاد الأندلس الواسعة الخضراء ذات الثمار الكثيرة والفواكه المتعددة من عنب وتين وتفاح وسفرجل وحمضيات وزيتون، بالإضافة إلى الثروة المعدنية التي لم تخل منها بلاد الأندلس (١)...

من مجموع هذه المصادر تكونت ثروات مادية هائلة تركزت في يد الملاك والحكام والمحيطين بهم.

وقد قرر الناصر بناء مدينة الزهراء: فابتدئ بنيانها في أيام الناصر من أول سنة ٣٢٥هـ وكان يصرف فيها كل يوم من الصخر المنجور ستة آلاف صخرة "وجلب إليها الرخام من قرطاجنة افريقية ومن تونس" (٢).

لقد نسب قصر الزهراء (وهو قصر يمثل القلب الحي ملكي كامل) إلى الزهراء محظية الناصر التي كانت تتمتع بمكانة خاصة لديه، ويقول المستشرق (جوزيف كيب)(٣) إنه خلافا للقرآن جعل لها تمثالا جميلا من المرمر نصبه على باب القصر، وكان يشتغل في بناء القصر عشرة آلاف رجل وثلاثون ألف دابة. وقد زعموا أن له خمسة عشر ألفاً وأربعة آلاف سارية (جلبت من اليونان وإيطاليا وإفريقيا وغيرها) والإيوان الأوسط كانت سواريه من المرمر والحجر الشفاف، وكانت رؤوسها مرصعة باللؤلؤ والياقوت، وكان جريد سقفه من الذهب والفضة، وكانت جدرانه وقبته من العقيق اليماني،

(١) المقري: نفخ الطيب ٢/٢٠٣ نقلا عن :الدغلي: الحياة الاجتماعية ٥٦

(٢) ابن عذارى: البيان المغرب ٢/٢٣٠ نشر دار الثقافة تحقيق كولان وبروفنسال.

(٣) جوزيف كيب: مدنية المسلمين في أسبانيا صـ٦٩- ٧٢ الطبعة الثانية ترجمة محمد تقي الدين الهلالي

وكان به ثمانية أبواب من الأبانوس والعاج مرصعة بالجواهر ، وكان في القصر ثلاثمائة حمام مستجمع لشروط النعمة . وكانت الحدائق واسعة جدا حتى أن الحيتان التي كانت في حياضها وكانت كلها من نوع (السمك الذهبي) كان قوتها اليومي اثنى عشر ألف رغيف من الخبز . وحوله كانت مساكن جميلة لخاصة الخليفة ورجال دولته المقربين وأرباب المناصب العالية . وهكذا كانت مدينة الزهراء مدينة تسبي الألباب وتسحر العقول بجمالها ، وإن سألت عن حالها اليوم فهي في حال لا تقدر أن تشبع قليلا من الماعز ، وكل شئ هنالك كان ملكيا ، والموسيقى المغنى الخاص لعبد الرحمن الثاني كان أديبا من أعاجيب الزمان وسنذكره فيما بعد ، معاشه ٤٠,٠٠٠ دينار من الذهب في كل سنة أكبر بكثير من راتب رئيس الولايات المتحدة ، وهذا النعيم الذي لم يمض عليه أكثر من خمسمائة سنة لم يحفظ منه الأسبانيون مثقال ذرة (١)

ولم يكن الأمر محصوراً في الزهراء فحسب ، بل كانت القصور المفخمة ممتدة على شاطئ الوادي الكبير مسافة عشرة أميال ، وكانت أسواق قرطبة من أغنى أسواق الدنيا ، فلم يسمع سامع بشئ من التوابل والعطور أو المنسوجات الفاخرة أو الكتب الخطية النادرة أو البسط والزرابي البديعة أم آلات اللهو في أى رجا من أرجاء الدنيا إلا وقد جلبت إلى تلك السوق ، وحال أمريكا اليوم بالنسبة إلى الدنيا القديمة هي حال الأندلس في ذلك الزمان بالنسبة إلى غيرها من البلاد ، ولكن الأندلس كانت أعظم من وجهة المدنية (٢).
وكانت الحدائق العامة المعدة للتنزه نزهة للأبصار (٣).

(١) المكان السابق – بتصرف

(٢) المكان السابق

(٣) المرجع السابق صـ٧٧

وإمعانا في السقوط في حفرة التكاثر المادي لم يكتف الأندلسيون بما تَضُمُّه أرضهم، بل راحوا يستوردون وسائل البناء الفخم، فكانوا يستوردون المرمر من اليونان وإيطاليا وإفريقية، وكانت سفنهم تجلب المقادير العظيمة من خشب السدر والعاج والأبنوس وأحسن التوابل والطيب الذي يمدهم به الشرق، وكانوا يجلبون من هناك الذهب والفضة والجواهر والمحار والحجر الشفاف وحجر الأزورد وجلود السلاحف وكل مادة معروفة من مواد الزينة (...) وقد عرفوا كيف يقفون أموالهم على فنون المعيشة إلى حد لم يصل إليه إلا قليل من الأمم، وقصور الأشراف وأرباب المناصب والأدباء كانت تقارب في الفخامة والسعة قصور الخليفة، وحتى منازل أرباب الحوانيت محتها أعاصير النكبة التي أنزلها الأسبانيون بالأندلس(١).

وعلاوة على ذلك فمئات الحمامات المحشاة أطرافها بالمرمر والفسيفساء والحدائق العامة البديعة كانت ممتدة على شاطئ الوادي الكبير وكانت نعمة ورفاهية للناس جميعا من الخليفة إلى أدنى الطبقات.

* * *

وكان أمراً طبيعياً أن يظهر الناصر فلسفته الفكرية التي تقف وراء هذه الأعمال العمرانية والمادية التي تمثل تحولا عن التوجه الإسلامي

---

(١) المكان السابق

الذي يقوم على بناء العقيدة والإنسان -بالدرجة الأولى- فقال شعرا يترجم آراءه:

هم الملوك إذا أرادوا ذكرها	من بعدهم فبألسن البنيان
أو ما ترى الهرمين قد بقيا وكم	ملك محته حوادث الأزمان
إن البناء إذا تعارض شأنه	أضحى يدل على عظيم الشان

لقد نسي الناصر أن هذه الفلسفة المادية لا تمثل الرؤية الإسلامية، بل هي -كما ورد في شعره -عرضا- فلسفة الحضارات المادية والفرعونية التي لا تحمل رسالة إلهية توحيدية عامة تمثل خطابا لكل البشر ومشروعا لإنقاذهم وتحقيق إنسانيتهم وكرامتهم وعبوديتهم لله وحده.

وكان من جراء هذه الفلسفة المادية أن الغزوات الكثيرة التي قام بها الخليفة العظيم عبد الرحمن الناصر لم تسفر عن انتشار للإسلام أو فتح أقاليم جديدة ذات شأن، بل أسفرت عن ازدهار مادي وإقامة مؤسسات عمرانية وشهرة سياسية ومجد عسكري وحسب!!

وقد قامت معارضة كبيرة ضد الناصر تحمل وجهة النظر الإسلامية في هذا التوجه المادي الذي يعلي من أسهم حضارة الحجارة وقهر الإنسان في سبيل مجد شخصي زائل، وينفق وقت الأمة وأموالها في هذه الأشكال والرسوم، وقد تزعم المعارضة القاضي المجاهد المنذر بن سعيد البلوطي...

وكان من أقوال المنذر البلوطي في رد فلسفة الخليفة الناصر هذا الشعر الذي يقول فيه:

يا باني الزهراء مستغرقا	أوقاته فيها أما تمهل

لـــــه مـــا أحسنهـــــا رونقـــاً   لـــو لمـــا تكـــن زهـــرتها تـــذبل

وفي يوم من أيام الجمع انهمك الناصر في استكمال زخارف الزهراء وأثاثها حتى فاته حضور الجمعة فحفظها له البلوطي، فلما احتفل بافتتاحها خطب البلوطي في مسجدها فكان مما أورده في مجال مقاومة هذا الاتجاه قول الله تعالى: «**أتبنون بكل ريع آية تعبثون، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون،** وإذا **بطشتم بطشتم جبارين، فاتقوا الله وأطيعون، واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون، أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون، إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم**(١)».

ويعلق على هذا الخلاف بين الخليفة الناصر والقاضي البلوطي المؤرخ المعاصر الدكتور أحمد مختار العبادي فيقول (٢):

"ثم دارت الأيام دورتها وتحقق ما ذهب إليه المنذر بن سعيد، إذ لم تعمر مدينة الزهراء أكثر من ستين عاماً، ثم لعبت بها أيدي الخراب في أيام الفتن التي قامت في أواخر أيام الدولة الأموية، وصارت المدينة تنمحي شيئا فشيئا، حتى زالت ولم يعرف أثرها إلا بعد الحفريات الحديثة (٣)".

وهكذا -مع بداية الربع الثاني من القرن الرابع في الأندلس- تألق توجه مادي في الأندلس أحدث شرخاً قوياً في الحضارة الإسلامية، وظل مستمرا في عصور الأندلس التالية، فكان -ولاسيما

(١) محب الدين الخطيب: الزهراء صـ ٣٨: المطبعة السلفية ومكتبتها القاهرة ١٣٤٣هـ. (والآيات من سورة الشعراء ١٢٨-١٣٥).

(٢) في تاريخ المغرب والأندلس صـ ١٨٣، ٢٢٢ طبع دار النهضة العربية بيروت ١٩٧٨.

(٣) في تاريخ المغرب الأندلس صـ٢٢٢

في عصر الناصر- عاملا -مع عوامل اخرى- على فقدان روحها وخصائصها ، وبالتالي تمكين الأعداء من الإجهاز عليها .

* * *

ولقد ذكر مؤرخ الأندلس (أبو حيان القرطبي) صاحب (المقتبس في ذكر بلاد الأندلس) أن مباني الزهراء قد اشتملت على أربعة آلاف سارية، وأن مصاريع أبوابها كانت تنيف على خمسة عشر ألف باب، وكان عدد الفتيان بالزهراء ثلاثة عشر ألف فتى وسبعمائة وخمسين، وعدد النساء بقصر الزهراء وخدم الخدمة ستة آلاف وثلاثمائة امرأة وأربع عشرة!! وقيل إنه عمل في بنائها عشرة آلاف عامل في خمس وعشرين سنة (١).

وكانت عدة الدور في مدينة الزهراء اربعمائة دار ونيفاً وثلاثين، وكانت عدة الرعايا والسواد بها الذاهب على أهلها المبيت في السور مائة ألف دار وثلاثة عشرة ألف دار حاشا الوزراء وأكابر الناس (٢).

وقد اعتنى الأندلسيون بصنع التماثيل والصور التي تحكي صور الأشخاص والحيوانات، وكان بحمام الشطارة بإشبيلية صورة بديعة الشكل فوصفها بعض أهل الأندلس بقوله :

ودمية مرمر تزهى بجيد ... تناهي في التورد والبياض
لها ولد ولم تعرف قليلا ... ولا ألمت بأوجاع المخاض
ونعلــم أنها حجر ولكن ... تيـمّنـا بألمــــاظ مــراض

(١) محمد سعيد الدغلي/ الحياة الاجتماعية في الأندلس صـ٥٤ (نقلاعن أحمد أمين) ظهر الاسلام.

(٢) المقرى / نفح الطيب ١ /٧٩.٧٨ (نقلا عن الدغلى) صـ٥٤

ومن الطبيعي أن يكون فن العمران في الأندلس قد تمثل ما حمله العرب معهم من مزاج الفن البيزنطي والفارسي ولكن الأثر القوطي واضح الظهور فيه..

وكانت الكتابة العربية دعامة من دعائم الزخرفة والتزين لخطها الكوفي الجميل حتى كان يحسبه المقلدون من الأسبان والفرنج رسما.

* * *

كان عبد الرحمن الداخل (١٣٨-١٧٢هـ) قد بدأ بناء المسجد الجامع في قرطبة سنة ١٦٩هـ، وأنفق في ذلك ثمانين ألفا من لجين وعسجد(١) ثم زاد هشام (١٧٢-١٨٠هـ) صومعة وسقائف لصلاة النساء والميضأة(٢). ثم زاد فيه عبد الرحمن بن الحكم بن هشام (٢٠٦- ٢٣٨هـ) زيادة كبيرة كان الفراغ منها سنة ٢٣٤هـ(٣). ثم زاد الأمير محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨- ٢٧٣هـ) طرزا في الجامع وتنميقا لنقوشه وأقام مقصورة وجعل لها ثلاثة أبواب(٤). ثم زاد الأمير المنذر بن محمد (٢٧٣ -٢٧٥هـ) البيت المعروف ببيت المال في الجامع وأمر بتجديد السقاية وإصلاح السقائف، ثم زاد أخوه الأمير عبد الله بن محمد (٢٧٥- ٣٠٠هـ) بساطا معقودا على حنايا أوصل به ما بين القصر، والجامع، ثم أمر بستارة من آخر هذا البساط إلى أن أوصلها بالمحراب، وفتح إلى

---

(١) اشارة إلى بيتين من الشعر قالهما البلوى الشاعر بهذه المناسبة (انظر ابن عذارى: البيان المغرب ٢/١٧٠)

(٢) ابن عذارى: ٢/٢٣٠

(٣) السابق ٢/٢٣٠

(٤) المكان السابق نفسه

المقصورة بابا كان يخرج منه إلى الصلاة (١)..

-فلما جاء عبد الرحمن الناصر أنفق في صومعة المسجد وفي تعديل المسجد وبنيان الوجه للبلاطات الأحد عشر بلاطا سبعة أمداد وكيلين ونصف كيل من الدراهم القاسمية (٢)..

إننا ننظر نظرة قلق وريب إلى ظاهرة تتابع الخلفاء المصحوب بلون من التنافس -في توسعة مسجد ما-

ومسجد قرطبة من أبرز النماذج الأندلسية التي ننظر إليها هذه النظرة المريبة!!

إنّ فقهنا بالمقاصد الإسلامية العليا وبطبيعة التوازن الإسلامي والتجريد والارتفاع عن المادة تجعلنا نرصد هذه الظاهرة المادية التي تسقط فلسفتها حتى على بيوت الله، فتسعى إلى تحويلها إلى أشباه متاحف أو كنائس، وتبتعد بها عن البساطة والتجريد والطبيعة الجميلة التي تقاوم أي تكثيف للجوانب المظهرية والحسية!!

وبتكاليف مسجد واحد قد نستطيع بناء عشرين أو خمسين مسجدا (٣) ومدرسة لمسلمين فقراء في بلاد الإسلام قد لايجدون ما يبنون به مسجداً بسيطا أو مدرسة بسيطة!!

ولنتأمل هذا الوصف الذي يتحدث به (جوزيف مالك كيب) عن مسجد قرطبة، ولسوف نشعر أننا أمام خصائص أقرب إلى الفلسفة الكنسية المركبة منها إلى الطبيعة المسجدية البسيطة...

---

(١) المكان السابق نفسه

(٢) ابن عذارى / البيان (٢/ ٢٣١)

(٣) بل إنه في العصر الحديث يمكن أن يبنى بتكاليف مسجد واحد أكثر من ألف مسجد أو مدرسة!!

يقول كيب: لم يبق من آثار قرطبة في القرون الوسطى إلا أثر واضح هو جامعها الذي لا يزال إلى اليوم جميع أطفال قرطبة يسمونه مسجدا ولولاه ما تجشم أحد عناء السفر لمشاهدة قرطبة. ولو كانت على خمسة أميال منه ولكن الناس من جميع أنحاء الدنيا يسافرون إليها ليشاهدوه. وهو أعظم معبد في الدنيا بعد كنيسة (سنت بيترس) وهو آية لا نظير لها من الهندسة والبناء. وظاهر هذا المسجد لايستولي على اللب. ولم يكن المغربيون الذين كانوا يفضلون الإقامة داخل البيوت أكثر من خارجها يهتمون نسبياً كثيرا بالظاهر. وأما في الداخل فهناك العجائب إذا دخلت الجامع من أي باب من أبوابه التسعة عشر يخيل إليك أنك تائه في غابة من أشجار المرمر، ففيه ثمانمائة وستون سارية من المرمر والرخام واليشب وفيه غير ذلك ألف واثنتا عشرة سارية. وفيه تسعة عشر رواقا ينتهي كل منها بباب من الأبواب التسعة عشر. وله سقف خشبي منخفض نسبيا قد زخرف بالأرجوان والذهب(١) وفي الأعياد الكبيرة توقد مائتان وثمانون ثريا من الفضة والنحاس يحترق فيها الزيت المعطر وتتلألأ فيها آلاف كثيرة من المصابيح فتلقى أنوارها على ذلك المشهد: وأكبر ثريا منها كان محيطها ثمانية وثلاثين قدما (فوت) يحمل ألفا وأربعمائة وأربعا وخمسين مصباحا. ولها مرآة تعكس النور فيزيد شعاعه تسعة أضعاف. وفيها ٦٠٠٠ طبق من الفضة مسمرة بالذهب ومرصعة باللؤلؤ، وكان الجامع قد شيد مع مضافاته في القرون الثامن والتاسع والعاشر. المحراب الذي هو أقدس محل

---

(١) جوزيف كيب / مدنية المسلمين في أسبانيا صـ٦٥ وما بعدها.

في مسجد المغربيين كان فيه حنيتان وكان أعظم زخرفا من سائر المسجد. وآخر المحراب يشبه صدفة من رخام. وله مدخل يتلألأ كالذهب الخالص أو الديباج بفسيفسائه الجميلة. وأحيل القارىء على كتب زخرفة البناء أو كتب الاستدلال ليرى عجائب هذا الجامع العظيم. وكان بناؤوه من النصارى المنتمين إلى الكنيسة اليونانية، وكانت بينهم وبين المغربيين مودة فجلبوهم لبنائه. وهو أثر لمدنية زاهية لايضاهيها اليوم شيء في الدنيا، وكان عبد الرحمن الأول مؤسس هذه الدولة جعل مدينة قرطبة على مثال مدينة دمشق التي قضى فيها أوائل عمره، وبلغت نفقاته على ما حدثنا به مؤرخو العرب ٣٠٠,٠٠٠,٠٠٠دولار(١)... إن هذا المنهج لايمت إلى المساجد المؤسسة على التقوى بشيء، بل هي مساجد تؤسس لمجد دنيوي؛ بحيث أصبح الأمر تنافساً على تخليد الذكر عن طريق التوسع في بناء المساجد بهذا الشكل التبذيري!!

ولئن كان الأمر مقبولا في حدود طاقة الأمة وسلم أولوياتها وفي حدود نسبة المنفق على المساجد أو المباني إلى ميزانية الإنفاق العام -فقد بدأت النسبة تختل مع بداية بناء الزهراء(٢) وتوجه الخليفة العظيم عبد الرحمن الناصر إلى التركيز على هذا المنحى -كما ذكرنا- دون تحديد دقيق لعواقبه الوخيمة وآثاره البعيدة!!

(١) جوزيف كيب/ المرجع السابق ٦٨، ٦٩

(٢) يقول ابن عذارى: (وجملة القول ما أنفق عبد الرحمن الناصر في بناء مدينة الزهراء وقصورها خمسة وعشرون مديا من الدراهم القاسمية وستة أقفزة وثلاثة أكيال ونصف!! ترى لو أنفقها على الدعوة إلى الإسلام وبناء مؤسسات صناعية وعلمية ماذا سيكون عليها حال الأندلس بعده!!

وجدير بالذكر أن الناصر لم يبن الزهراء وحدها بل أعاد بناء مدينة سالم شمال شرق مدريد ١٣٥كم وبنى المرسية قاعدة للأسطول وللتجارة.

وبما أن الناس -في التقليد- على دين ملوكهم، فقد أصبحت المدن الأندلسية تضم كثيرا من الضياع والمنيات، والتي انتشرت في بلاد الأندلس بشكل عام، وقد استمر نظام الضياع واتسع، ثم انتشرت المنيات، وكان هناك فرق بين الضياع والمنيات يميز إحداهن عن الأخرى، فالضياع عبارة عن قرى تصير إلى ملك مالك كبير، وكثيرا ما كان يسكن بها. أما المنية فعبارة عن ضيعة صغيرة ينشأ حولها قصر ريفي يبنيه المالك لتلك المدينة(١).

وكذلك كانت مدن الأندلس تحتوي على كثير من التماثيل والأشكال الهندسية. وقد أورد ذلك المقري عند وصفه لمدينة قرطاجة بقوله: وبها أقواس من الحجارة المقربصة، وفيها من التصاوير والتماثيل وأشكال الناس وصور الحيوانات ما يحير البصر والبصيرة(٢)..

وعندما جاء محمد بن أبي عامر (الحاجب المنصور) (٣٦٦-٣٩٢هـ) سار على خطى الناصر فأنشأ مدينة الزاهرة شمال شرقي قرطبة سنة ٣٦٨هـ (٩٧٨م) لتنافس الزهراء أو لتحل محلها..

لكن مصير الزاهرة لم يكن أفضل من مصير الزهراء، فاندرست بعد مدة قصيرة من بنائها خلال الثورات التي قامت ضد عبد الرحمن ابن المنصور بن أبي عامر المعروف بشنجول سنة ٣٩٩هـ.

---

(١) ابن القوطية أبو بكر محمد بن عمر: تاريخ افتتاح الأندلس صـ٢٠٩ تحقيق ابراهيم الأبياري دار الكتب الإسلامية ط١ /١٤٠٢هـ

(٢) المقري أحمد بن محمد: النفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب ١ /١٦٠ بتحقيق محمد محي الدين عبد الحميد- دار الفكر القاهرة ١٩٤٩م.

وفي عهدي عبد الرحمن الناصر والمنصور بن أبي عامر اللذين يوشكان أن ينتظما القرن الرابع الهجري (٣٠٠-٣٩٢هـ) كان التكالب على المادة ومظاهر الثراء والبذخ هي السمات الغالبة على الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الأندلس . وكان هذا النمط من الحياة سببا من أسباب قيام الفتنة الطائفية التي مزقت وحدة الأندلس إلى اثنتين وعشرين دولة!!

ويروي ابن عذارى المراكشي أنه في عهد عبد الملك بن المنصور العامري خرج الناس صائحين: (مات الجلاب)(١) يقصدون كثرة الغنائم والسبايا التي كان المنصور يجلبها من غزواته، والتي أتخم بها المجتمع الأندلسي لدرجة أن الناس في عهده كانوا يجهزون بناتهم بمبالغ كثيرة ومظاهر فخمة تعبيراً عن الثراء الذي يعيشه المجتمع.

ويحكي لنا محمد بن أفلح أن المنصور بن أبي عامر كان فى مجلس في دار الضرب أيام حكمه، فقصده ابن الأفلح عندما اضطر الى عمل عرس لابنته ووجد أنه سيكلف ما لايطيق، فملأ أبي عامر حجره بالمال، لدرجة أن ابن أبي أفلح لم يكن يصدق ما يراه لكثرته وعظمته، وعمل العرس، وفضلت له فضلة عظيمة(٢).

ويوضح لنا الثراء المادي والتكالب على الزخارف تلك النعوت التفصيلية الكثيرة التي وصف بها المؤرخون والجغرافيون جامع قرطبة العظيم، بما يحتويه من مصابيح وثريات وخشب صنوبري،

---

(١) البيان المغرب ١٣/٣ تحقيق ليفي بروفنسال.

(٢) المقري: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب ٨٨/٣ تحقيق محي الدين عبد الحميد نشر دار الكتاب العربي بيروت.

وصنائع ونقوش وزخارف لا يشبه بعضها بعضا وبلاط نادر ، وقبلة يعجز الواصفون عن وصفها ، فيها من الفسيفساء المذهب الكثير ، وعلى وجه المحراب أنواع كثيرة من التزيين والنقوش، وفي جهتي المحراب أربعة عمدان لا تقوم بمال. أما الصومعة (المئذنة) فارتفاعها في الهواء مائة ذراع، ويصعد إليها بمدرجين، وعلى أعلى القبة ثلاث تفاحات ذهبا ، واثنتان من فضة (١).

وفي عصر الطوائف (٤٢٢- ٤٧٨هـ) استمرت ظاهرة التكالب المادي ومظاهر البذخ، على الرغم من الصراعات التي كانت دائرة بين الإمارات الأندلسية (إمارات المدن)..وكانت الطبقة الحاكمة في الجملة، ومن يلوذ بها ، فضلا عن بقية أعضاء الطبقة الأرستقراطية تتفنن في بناء القصور وابتداع ألوان الزخارف فيها ، وكانت قصور هؤلاء الأثرياء مثوى لفنون الغناء والرقص والموسيقى وما يدخل بابهما من صور الترف، وكان معظم هؤلاء الأثرياء من المعتكفين على الموسيقى والفتيات الحسان وهم ينفقون في سبيل ذلك الأموال الطائلة (٢).

لقد وقع نوع من التنافس على المظاهر بغية إظهار القوة والعظمة بين ملوك الطوائف في المدن الأندلسية المختلفة ، وكانت كل منها تحاول أن تكون الأعظم والأرقى في مظاهر الحياة المادية . ففي أشبيلية كان للأرستقراطية الأشبيلية -ولاسيما الأسرة الحاكمة- النصيب الأوفر من هذا الرفاه الاقتصادي .

---

(١) الحميري: صفة جزيرة الأندلس/ من كتاب الروض المعطار صفحات ١٥٣/ ١٥٦ بعناية ليفي بروفنسال ومخطوط في ذكر بلاد الأندلس لمؤلف مجهول ورقة ٢١٣- الخزانة الملكية بالرباط رقم ٥٥٨.

(٢) محمد عبد الله عنان: دول الطوائف صـ٤٤١ نشر مصر ١٩٦٠م.

وكان من الطبيعي في ظل هذا التوجه أن ينتشر الترف والتحلل، وأن يترجم الأدب هذا النمط من الحياة. ولهذا كانت القصائد التي صدرت عن أسرة بني عباد والأسر الأرستقراطية الإشبيلية مستوحاة من حياتهم الباذخة، فقد كانت مشاغلهم نادرا ما تتجاوز حياتهم المترفة في القصور كمجالس الأنس والشراب والزهور والنساء والغلمان(١)

ولعل أهم الأدباء الذين وصلتنا أسماؤهم من ممثلي هذا الاتجاه المترف أبو عامر بن مسلمة، وأبو جعفر بن الأبار، وأبو بكر بن القوطية، وأبو الوليد إسماعيل بن عامر الحميري، وأبو بكر بن نصر، وأبو الإصبغ بن عبد العزيز، وأبو الوليد بن العثماني، وأبو الحسن بن علي(٢) وغيرهم.

وكنموذج نضربه لهذا الاتجاه نشير الى أن الشاعر أبا عامر بن مسلمة كان يملك ثروة كبيرة كفلت له حياة البذخ والعيش المرفه الرغيد، ولهذا فقد ابتعد عن المعتضد بن عباد واكتفى بحياته المريحة الباذخة التي كانت تهيئها له ثروته الكبيرة، واكتفى لكى يحافظ على حياته المترفة من بطش السلطان أن يذكر اسمه في نهاية مقطوعاته الشعرية التي يصف فيها الربيع والأزهار والخمور (٣).

---

(١) صلاح خالص: إشبيلية في القرن الخامس الهجري صـ١٥٢ دار الثقافة بيروت ١٩٦٥م.

(٢) المكان السابق

(٣) المرجع السابق صـ١٥٣

والحقيقة أن أبا عامر -استنادا على ما لدينا من شعره- يبدو لنا نموذجا ممثلا للأرستقراطية البعيدة عن الحكم ومشاغله، وهي تلك الأرستقراطية التي تعتزل الحياة العامة وتنطوي في عالمها الخاص الذي تهيئه لها ثروتها الكبيرة، وهو عالم مليء بالجمال والنساء والحسان والغلمان والحدائق والزهور والخمر، عالم يستطيع أن يجد فيه الشاعر كثيرا من مصادر الإلهام. وإذا وضعنا جانبا أبياتا متفرقة هنا وهناك تتحدث عن المعتضد فلا شيء في هذه المقطوعات يتحدث عن العالم الخارجي... فلا إسلام ولا أندلس ولا أعداء يهتم بهم الشاعر!!

وقد ذكر ابن بسام قطعا جميلة من إنتاج أبي عامر تعالج موضوعات أوحاها إلى الشاعر عالمه الخاص الذي انطوى فيه على نفسه كما هو حال فريق من الأغنياء الذين اختاروا مثل حياته، كما يذكر مؤلف كتاب «البديع في وصف الربيع» أبو الوليد الحميري عددا من المقطوعات الشعرية في وصف مختلف أنواع الزهور، تجعل من أبي عامر بن مسلمة شاعرا مبرزا في هذا الميدان من ميادين الشعر الأندلسي (١).

وإذا تركنا اشبيلية وانتقلنا إلى قرطبة بدءا من عصر الفتنة وحتى ينتهي عصر الطوائف بقدوم المرابطين، فإننا نجد أنواعا من التكالب المادي قد لاتكون من طبيعة التهالك الموجود في اشبيلية، لكنها -على أية حال- لا تقل سوءا عنها.. بل هي الأسوأ بكل المقاييس..

---

(١) المرجع السابق ١٥٤ (وانظر الذخيرة ق٢، ترجمة أبو عامر بن مسلمة)

فمع بداية القرن الخامس الهجري وبداية انحلال الرابطة الأموية وتمزق الأوضاع ظهر التكالب المادي في أسوأ صوره ،فعندما ولى محمد بن هشام بن عبد الجبار عن طريق السوقية والعامة : سر أهل قرطبة بولاية محمد بن هشام (١٦جمادى الأخرة ٣٩٩هـ) -على حساب الخليفة الرسمي هشام بن الحكم- سرورا عظيما ، وأحدثوا برحاب قرطبة وأرباضها ولائم وأعراسا ، وداموا على ذلك أياما تباعا ينتقلون من موضع إلى موضع بالمزامير والملاهي ، راجين تمام أملهم وانتظام أمرهم فأتاهم القدر بخلاف ذلك(١)

وبفساد سياسة ابن عبد الجبار وبغضه للبربر والنيل منهم في مجالسه ، اشتعلت الفتنة بقرطبة بين البربر والعامة ، وأمر ابن عبد الجبار أن ينادى في الناس: من أتى برأس بربري فله كذا ، فتسارع أهل قرطبة في قتل من قدروا عليه طمعاً في المادة ، فلم يبق تاجر ولا جندي إلا اجتهد في القتل والنهب ، ودخلوا على وسنار البرزالي ، وكان ممن له آثار جميلة في الجهاد فذبحوه على فراشه في داره ، وقد نهبت ديار البربر وهتك حريمهم وسبى نساؤهم وباعوهن في دار البنات وقتلوا النساء والحوامل(٢).

وكان مقام البربر بالزهراء فكان أهل قرطبة -في فترة الفتنة- لايألونهم إلا شراً ، وكل من وجدوه منهم في خلوة أو منفردا قتلوه غيلة(٣). بتأثير التكالب المادي وضعف الدين وغيبة الشريعة الحاكمة والحاكم الصالح.

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ٣/ ٧٤

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ٣/ ٨١

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب ٣/ ٩٢

ولئن كانت قرطبة قد نجحت في عصر الطوائف على يد بني جهور من هذا السعار المادي -إلى حد كبير- فإنها كانت كالزهرة المفردة في حديقة من الأشواك، إذ أن أكثر مدن الطوائف كانت خاضعة لهذا السعار المادي بقيادة هؤلاء الملوك الصغار الذين قال فيهم الشاعر :

مما يزهدني في أرض أندلس ألقـــاب معتضـد فيها ومعتــمد
ألقاب مملكة في غير موضعها كالهر يحكي انتفاخا صولة الأسد

فبالإضافة إلى ما ذكرناه من أحوال أشبيلية في هذا العصر، فإن مدينتي بلنسية وشاطبة الخاضعتين لمبارك ومظفر المملوكين العامريين قد سابقت في هذا الميدان؛ فقد كان هذان العبدان عنيفين في تحصيل الأموال من الناس بغير حق فبلغت جبايتهما -كما يقول ابن عذارى المراكشي- في أول ولايتهما مائة وعشرين ألف دينار في الشهر يستخرجانها بأشد العنف من كل صنف حتى تساقطت الرعية، وجلت أولا فأول، وخربت أقاليمهم آخرا.

-أما مبارك والمظفر فقد سلكا سبيل الملوك الجبارين في تشييد البناء والقصور والتباهي في عليات الأمور إلى أبعد الغايات ومنتهى النهايات، واشتمل هذا الاتجاه على جميع أصحابهما ومن تعلق بهما من وزرائهما وكتابهما، فاحتذوا فعلهما في تفخيم البناء، فهاموا منه في ترهات مضلة، وتكسفوا في أشغال متصلة، لاهين عما كانت فيه الأمة يومئذ، كأنهم من الله على عهد لايخلفه (١).

ويتابـع ابـن عذارى وصفه لهذا التكاثر المـادي الـذي أعمـى

---

(١) ابن عذارى: البيان المغرب ٣/ ١٦٠

أصحابه عن كل معنى من معاني الآخرة، وعن كل قيمة من قيم الإسلام، وعن كل إحساس بالمسئولية الإسلامية نحو الأمة المسلمة المنكوبة، ولاسيما الأندلس الممزقة.. فيقول(١):

«واتسع الخرق في عظيم ذلك الإنفاق، فمنهم من قدرت نفقته على منزل مائة ألف دينار وأقل منها وفوقها حسب تناهيهم في سرها، وبعثر عن ذخائر الأملاك لقصيدهم، وضرب تجارها وجوه الركاب نحوهم، حتى بلغوا من ذلك البغية، فما شئت من طرف رائق وملبس رفيع جليل وخادم عجيب نبيل وآلات مشاكلة وأمور متقابلة تروق الناظرين وتغيظ الحاسدين جرها لهم المقدار الى مدة.

وكان لمبارك ومظفر جنة ذلك النعيم وفازا بعنصر الخراج، ولم يعرض لهما عارض اتفاق بتلك الآفاق، فانغمسا في النعيم الى قمم رؤوسهما وأخلدا الى الدعة وسارعا في قضاء اللذة حتى أربيا على من تقدم وتأخر».

وفي سرقسطة في عصر الطوائف بالإضافة إلى أشبيلية وبلشية وشاطبة، مال منذر بن يحي صاحبها إلى السكون والدعة، وأبطل رسوم الجهاد وتقرب الى النصارى حتى يسالموه، وتفرغ -بذلك- للترف هو ومن يلوذون به. وعندما قتله رجل من بني عمه يدعى عبد الله بن حكيم غرة ذي الحجة سنة ٤٣٠هـ، استطاع هذا القاتل أن يهرب -بعد ملاحقته- بفاخر ما اشتمل عليه قصر منذر من ذخائر الأموال، ونهبت العامة بعد هروب القاتل قصره، فأخذوا منه كثيرا من النفائس حتى قلعوا مرمره وطمسوا أثره (٢).

(١) ابن عذارى: البيان المغرب ١٦١/٣

(٢) ابن عذارى: البيان المغرب ١٨٠/٣

ومـمن نزوا على أطراف الأندلس ابن الأصلع هذيل بن خلف صاحب السهلة، وهي خصبة في موقع متوسط بين الثغرين الأقصى والأدنى من قرطبة فكثر ماله، حتى أصبح أكثر ملوك الطوائف همة في اكتساب آلات اللهو، وهو أول من بالـغ الثمن بالأندلس في شراء القينات المشهورات، فكانت ستارته أرفع ستارات الملوك في الأندلس(١).

وعلى هذا النهج كانت أوضاع أكثر المدن الأندلسية الطائفية، مما يصعب استقصاؤه في هذا البحث الوجيز، فكان ذلك -الى جانب عوامل أخرى- سببا في ضياع طليطلة- قلب الأندلس، وانهيار بقية المدن واستعدادها للسقوط لولا أن قيض الله -بكرمه- المرابطين، ثم الموحدين فحموا الأندلس من السقوط نحو قرنين، الى أن هزم الموحدون بقيادة الخليفة الناصر أمام الأذفونش وجيوشه الأوربية في موقعة العقاب يوم الاثنين الخامس عشر من صفر سنة ٦٠٩هـ (١٦تموز ١٢١٢م)(٣).

وبعد هذا التاريخ بدأت المدن الأندلسية تتداعى أمام النصارى.

ولم تستطع أن تفلت من هذا المصير -إلى حين- إلا مدينةغرناطة التي استطاع أبو عبد الله بن يوسف المعروف بابن الأحمر -أن يحتفظ بها وببعض المناطق في جنوبي الأندلس، مكونا ما عرف في التاريخ باسم مملكة غرناطة -أو «الأندلس الصغرى» بين سنتي (٦٣٥-٨٩٧هـ).

* * *

---

(١) ابن عذارى: البيان المغرب ١٨٣/٣

(٢) عبد الرحمن الحجي: التاريخ الأندلسي صـ٤٩٣ دار القلم ط١ /١٣٩٦هـ

وكان المأمول أن يدرس ملوك غرناطة ما أصاب المسلمين في الأندلس، وأن يقفوا على العوامل التي أدت بالأندلس إلى هذا المصير ويتجنبوها..

لكن شيئا ملموسا من ذلك لم يقع..

ولقد أنعم الله على غرناطة خلال حياتها الطويلة بظروف مناسبة لإعادة مجد الأندلس في ظل عوامل سلبية كثيرة أحاطت بخصومهم النصارى، وفي ظل قوة تمتع بها إخوانهم في الإسلام بنو مرين حكام المغرب الأقصى، الذين ساعدوهم في كثير من الأحايين..

لكن الجانبين: المرينى والنصرى، لم يخططا التخطيط السليم -في ظل ادراك واع بالظروف المحيطة -لمثل هذا الإنجاز العظيم.. وبالتالي تعاونت عوامل السقوط التي انتظمت الأندلس من قبل على سقوط غرناطة..

وكان التكاثر المادي وما يتبعه من ترف ولهو واستنزاف للطاقة وإبعاد للأمة عن عوامل النهضة الحقيقية- واحدا من تلك العوامل التي عملت عملها في سقوط غرناطة وفي خروج المسلمين جميعا من أسبانيا أشنع خروج عرفه التاريخ!!

أجل: لم يكن لدى ملوك غرناطة الطموح الإسلامي الرفيع الذي يدفعهم كي يحافظوا على حدود مملكتهم في وسط هؤلاء الأعداء المحيطين بهم من كل جانب، فقد جعلوا همهم -أيضا- أن يرتقوا بمدينتهم الرقي المادي المعروف، وأن يجعلوها المدينة المتفوقة مدنيا في المجالات المعمارية والصحية والترفيهية،فلم تكد تمضي

سنوات بعد إنشاء ابن الأحمر لمملكة غرناطة إلا وقد اشتبكت عمارة بلاده، واستطاع بمعاونة العلماء الذين وفدوا على غرناطة من المدن الإسلامية التي سقطت في يد النصارى -أن يستخرج المعادن ويستفتح أرصاد كنوز الطبيعة، وبنى قصر الحمراء فوق شرف من الأرض تحيط به قمم عالية صعبة المنحدر تتدفق في سفحها الشمالي مياه نهر حيدرو (درو) وقد حصن القصر بأسوار غطيت بالمرمر، وشدت عند كل مسافة بحصون تشرف عليها (١).

وكان للمهندسين المعماريين والفنانين والبنائين بخاصة -شأن كبير في غرناطة، مما يدل على طبيعة الاتجاه المادي الذي ركزت عليه النهضة الغرناطية.

وعلى يد هؤلاء بنيت الحمراء التي موهوا حيطانها بالزخرف الذهبي البديع، وزينوها بالأشكال المصبوبة ذات الهندسة العربية الفائقة التي لا تزال إلى اليوم موضع عجب الفنانين في أنحاء العالم وإعجابهم.

ويتحدث (كيب) عن قصر الحمراء وما حوله فيقول(٢):

ومن حسن الحظ بقى قصر الحمراء الملكي ليرينا الجلالة والتأنق والإبداع، وحتى الآن يجد فيها الإنسان معنى هذا اللفظ (أرض عبقر) حين يخرج من دهليزها المظلم إلى عرضه الأسود. فيرى سوارى المرمر الدقيقة كأغصان البان، ويتملى بالنظر إلى سطور الأساطين المستقيمة، وسقوفها المصبوغة بالألوان الزاهيـــة،

---

(١) عبد الحميد العبادي: المجمل في تاريخ الأندلس صـ١٧٢ دار القلم ط٢/١٩٦٤م القاهرة.

(٢) كيب/ نقلا عن المرجع السابق صـ١٠٤.

إذا نظرت إليها خلتها زرابي فارسية مرقشة، أو رياض أزهار بهيجة قد اشتبكت فيها الصناعة العجيبة، ولها طنوف مشرفة قد أفرغت في قوالب بديعة يحار الواصف في وصفها، وأما جدرانها ففيها من الترقيش العربي والتشجير والزخرف والأمثال والحكم المسطورة بأجمل شيء يذهل العقول.

وكانت على الجبل المجاور للحمراء وسهوله الواسعة الأرجاء عشرات الألوف من القصور الفخام التي لاتقل جمالا وإبداعاً في الذوق عن الحمراء، إلا أنها أقل تلألؤا بالذهب والفضة والجواهر. قال سكوت متلهفاً:

ماذا عوضنا الغازي الصليبي القشتالي الهمجي عن تلك القصور؟

وأي فائدة يجنيها النوع البشري من وراء تخريبها؟!!

* * *

وخلال العصر الغرناطي كله -باستثناء فترات قليلة- استمر منهاج التكاثر المادي والتنافس المعماري...

ففي عهد محمد الخامس من بني الأحمر وصلت عمارة الأندلس غايتها؛ إذ اشتعلت الفتن بين مملكتي قشتالة وأراجون النصرانيتين، وانتهز محمد الخامس هذا الهدوء بين النصارى والمسلمين، وكان هو نفسه ميالا للدعة، فارتقى بغرناطة -من الناحية المادية والمعمارية- حتى غدت أكثر الممالك رقيا وازدهارا(١)، ولم يعمد إلى استغلال الفرصة لتقوية بلاده وإعادة مجدها بالتعاون مع بني مرين، فضلا عن

(١) العبادي.. المجمل ١٧٣

الاهتمام بالإسلام ودعوته وصناعة الرجال الأكفاء، بل صرف همه إلى النواحي الفنية والمعمارية وانصرف الناس تبعا له الى الآداب والفنون وعظمت العمارة في غرناطة، وتم ذلك كله في ظل تفكك أعدائه في قشتالة وأراجون، وقوته النسبية أمام ضعفهم.

وبعد (محمد الخامس) توالى ملوك من بني الأحمر مرنوا على الترف والقصور الفارهة، ولم تكن لهم قوة أسلافهم الذين كانوا قريبين من مأساة سقوط الموحدين والمدن الأندلسية، وبالتالي كان لديهم شعور بالخطر والحذر «وكانت سنة الله ماضية» على نهجها الذي يعرفه أصحاب البصائر والفقه الحضاري، فقد زامن هذا الانحلال والترف الذي أصاب ملوك غرناطة -أن سلط الله عليهم عدوهم، فبدأت عوامل الوحدة والقوة تتجمع في أسبانيا النصرانية، وانتهت مسيرة الأحداث الى أن تزوج «فرديناند» ملك أرجون من «ايزابيلا» ملكة قشتالة، واتحدت المملكتان فكان هذا الاتحاد أكبر انتقام من الله لهؤلاء الملوك المترفين الذين نسوا الله فنسيهم، وسلط عليهم عدوا يسلبهم ما أنفقوا فيه أعمارهم، ونسوا -بسببه- دينهم ورسالتهم.

* * *

ومع تقديرنا لكل الأسباب الداخلية والخارجية التي لا يمكن تجاهلها، التي أدت في النهاية- إلى سقوط الأندلس وغرناطة..

ومع أننا نؤمن بأن أسبابا كثيرة تتفاعل -وقد تفاعلت فعلا في حالة غرناطة- كي تصل بالدولة -أو الأمة- إلى السقوط، ولايكفي سبب واحد -مادي أو معنوي- لسقوط الأمة أو الحضارة..

مع أننا نأخذ كل ذلك في تقديرنا ، ونؤمن بأن سقوط غرناطة كان حصاد عوامل كثيرة من ابرزها نسيان العقيدة والرسالة الدينية والحضارية التي قامت عليها الأندلس ، وانتصر بسببها جيش الفتح المكون من أخلاط من البشر الذين لاتوحدهم إلا العقيدة ، ولم يكن يزيد عددهم عن عشر الجيش النظامي الذي يقاتلونه .. فضلا عن ضآلة إمكاناتهم التي قاتلوا بها تحت قيادة البطل المسلم البربري العظيم طارق بن زياد ..

مع أننا نأخذ كل ذلك في تقديرنا إلا أننا نعتقد أن (التكاثر المادي) والتكالب على وسائل الترف من قصور وحدائق ومدن ملكية وأساليب فنية وترفيهية تزيد عن الحدود التي رسمها الإسلام ، وتستنزف طاقة الأمة وتصبغ الحياة صبغة مادية ناعمة مترفة .. نعتقد أن هذا السبب -بكل آثاره السلبية المادية والمعنوية -كان من أقوى الأسباب في سقوط الأندلس وغرناطة ..

بل إننا لنعتقد أن هذا السبب ظل يعمل عمله الخبيث ويطغى على بقية الأسباب حتى أصبحت المادة صنما يعبده هؤلاء المترفون ، واتجاها منحرفا يقيسون به الرقي الحضاري ، متجاهلين صناعة الإنسان وفاعلية العقيدة ، ومعاني الأخوة الاسلامية .. وواجبات الإنسان المسلم الحضارية تجاه المسلم وتجاه الإنسانية كلها ..

ومن منطلق طغيان هذا الاتجاه ازدرى الأندلسيون إخوانهم المرابطين عندما ساعدوهم ، وحكموا بلادهم ، وكانوا ينظرون إلى أنفسهم -مع كل تفككهم وهوانهم على أعدائهم وتآكلهم وانحلالهم- على أنهم أرقى من المرابطين ، وقد كانوا يستثقلون ظل المرابطين "البدو" ويشعرونهم بالإهانة ، وهم لايدرون أنهم -بهذا- يهدمون قيم

الأخوة الإسلامية ، وينظرون إلى الحضارة من منظور المدنية المادية وحدها .

* * *

وفي الأيام الأخيرة لغرناطة كانت هذه الآفة المادية قد باضت وأفرخت وأصبحت فلسفة وهدفا ، ولهذا فأنا أتجرأ وأزعم أن غرناطة -مع تقديرنا كما ذكرت لكل عوامل السقوط- لم تسقط بالحرب ، بل سقطت -بدرجة كبيرة- لسيطرة هذا العامل المادي على منهج الحياة . .

وقد أدرك الصليبيون وجود هذا المرض الخبيث في حكام غرناطة والمسيطرين على شئونها ، سواء من أبناء الأسرة الحاكمة أم الوزراء التنفيذيين ، أم بعض الفقهاء الذين اتخذوا الدين وسيلة للدنيا ولم يشتهر من الفقهاء -ونحمد الله على ذلك- إلا فقيه واحد ، يمثل قمة الخيانة للإسلام وعبادة المادة هو الفقيه البقيني . . بينما اشتهر من الوزراء في أيام السقوط الوزيران اللذان توليا -مع الفقيه البقيني- المفاوضات حول تسليم غرناطة للجانب الصليبي ، وهما الوزير أبو القاسم المليح والوزير يوسف بن كماشة- فلقد كان هذان الوزيران جشعين ماديين يبحثان عن مصالح مادية خاصة لهما ولملكهما وأسرته الحاكمة ، حتى في هذه الأيام النكداء . . أيام سقوط غرناطة . .

وقد كشف هذان الوزيران عن مدى وضاعتهما النفسية ونهمهما المادي من خلال تلك الرسائل التي كانا يرسلانها الى المفاوض النصراني (إيرناندو دى ثافرا) الذي كان يفاوضهما باسم فرناندو وإيزابيلا ، فقد جرت عادتهما القبيحة أن يبدءا الرسائل -وأحيانا

يختتمانها- بعبارات تفيد أنهما يقبلان قدمي الملكين وأيديهما (١).

وفي ذلك أكبر دليل على أن الرجلين-عميلان للنصارى، وكانا في الوقت نفسه يتظاهران أمام ابي عبد الله بعكس ذلك (أي أنهما يعملان من أجل الصالح العام!!؟) ويؤكد لنا خيانة الرجلين تلك الرسائل التي وجهها إليهما المفاوض النصراني ايرناندو دي نافرا، وفيها يقدم الوعود بالمكافأة من قبل الملكين لأبي القاسم المليح ويوسف بن كماشة، وكانت تلك الوعود مقرونة بطلب الملكين فرناندو وإيزابيلا من أبي القاسم ويوسف بن كماشة بضرورة التعجيل باستسلام غرناطة (٢). كما يؤكد خيانتهما أنهما كانا يتقاضيان مرتبات مَن قبل الملكين الكاثولكيين في الوقت الذي يشتد فيه الحصار على أبناء دينهم.

وقد بلغ التكالب المادي والخيانة بالوزير أبي القاسم المليح أن يخاطب مفوض الملكين الكاثوليكيين (إيرناندودي ثافرا) بقوله: «أقسم بالله وبالشريعة أنني إذا استطعت أن أحمل غرناطة على كتفي لحملتها إلى أصحاب الجلالة، وهذا برغبتي، وليقض الله على إذا كنت أكذب. كما أتمنى من الله أن ينتهي هـذا الأمـر على

---

(١) انظر رسالة أبو القاسم المليح الى ايرناندو دى ثافرا ورسالة يوسف بن كماشة وأبو القاسم المليح إلى الملكين الكاثولكين.في
(Archivo de Herndo de Zafra)

(٢) انظر رسالة ايرناندو دى ثافرا إلى أبو القاسم المليح، وانظر رسالة أبو القاسم ويوسف بن كماشة والتي يطلبان فيها من الملكين النصرانيين أن يرسلا لهما مبلغ ألف دويلة (انظر: عبده عواجي: الخلافات السياسية في الدولة النصرية ودورها في سقوط الأندلس صـ٣٥٧ رسالة ماجستير بكلية العلوم الاجتماعية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض ١٤١٠هـ)

خير (أى تسليم غرناطة) من هؤلاء القوم المجانين (يقصد الشعب المسلم الرافض لصفقة بيع غرناطة) وأرجو أن تكونوا على يقين بأنني خادم شريف، ومخلص لأصحاب الجلالة، لكن أهل المدينة لم يصل إدراكهم سن النضج والتفتح(١) (لأنهم يرفضون الصفقة المشينة).. »!!!

ومن الغريب أن السلطان أبا عبد الله أشار إلى أن الشكوك كانت تساور مسلمي غرناطة تجاه أبي القاسم المليح، وأنه كان يريد بيعهم للنصارى، وقد جرت محاولات للإطاحة به لكنها فشلت(٢)، ونعتقد أن السبب في بقاء هذا الخائن مساندة الجانب النصراني وبعض شركائه في الخيانة له.

ولم يقتصر المفاوض النصراني إيرناندو دي ثافرا على التفاوض مع أبي القاسم المليح ويوسف بن كماشة، بل استطاع أن يجذب اليه عملاء آخرين اشتركوا في المفاوضة، منهم المدعو بالفقيه البقيني الذي كان أحد المقربين من السلطان أبي عبد الله، وعلى دراية كاملة بما يدور حوله، وكان يتمتع بحظوة خاصة عنده ومن المستشارين المقربين إليه.

وقد اهتم ايرناندو دي ثافرا بهذا الفقيه الخائن لدينه وأمته ليخدم سادته من خلال مداهنته وتقديم الوعود البراقة له واغداق النعم عليه باعتباره أقرب المقربين إلى أبى عبد الله نظرا لمكانته الدينية.

---

(١) من أرشيف فرناندو ثافرا.

(٢) عبده عواجي: المرجع السابق ٣٥٩

وبالفعل فقد حالف الحظ ايرناندو دى ثافرا ، فقد شرع الفقيه المذكور في بعث بعض الرسائل اليه وأصبح جاسوسا للنصارى على سلطانه أبي عبد الله ، وصار يوافيهم بكل تحركاته وسكناته ، وبما يدور في خلده تجاههم(١)

وفي نهاية إحدى رسائله إلى ايرناندو ثافرا يصرح بمطالبه الشخصية من الملكين الكاثولكيين وهي التأكيد على حصوله على منصب قاضي البشرات وأمور أخرى(٢)

لقد كشفت لنا الوثائق ان الوزيرين أبا القاسم المليح وابن كماشة والفقيه البقيني يصدرون -مع أبي عبد الله- عن منهج واحد ، فقد انحسر همهم في الحصول على الأعطيات والامتيازات التي يمكنهم أن ينالوها من أصحاب الجلالة بفضل كرم أخلاقهم مع النصارى وتفريطهم في حقوق الإسلام والمسلمين(٣) .

وانطلاقاً من هذا المنهج فقد تضمنت المراسلات الجارية بينهم وبين المفاوض النصراني ، كما تضمنت وثائق تسليم غرناطة -قوائم بالأعطيات التى ستمنح للملك ولوزيريه الخائنين، ومما ورد فى وثيقة من هذه الوثائق أنه فى اليوم الذى ينبغى فيه تسليم الحمراء لأصحاب الجلالة يلتزم فيه أصحاب الجلالة بتسليم الأمير والرهائن الذين معه ، وأيضا عليهم تسليم مبلغ الثلاثين ألف قشتالي للملك والعشرة الآلاف لابن كماشة والعشرة الآلاف الأخرى لأبي القاسم

---

(١) انظر رسالة الفقيه البقيني الى ايرناندو دى ثافرا في (Archivo de Herndo de Zafra)

وانظر : عبده عواجى : الخلافات الأسرية صـ٣٦٠

(٢) الأرشيف السابق، والمرجع السابق صـ٣٦٨

(٣) عبده عواجى : المرجع السابق ٣٧٠

المليح ليكون إجمالي المبلغ خمسين ألف قشتالي وذلك في نفس اليوم، وعندما ينفذ أصحاب الجلالة ذلك وكل هذه العطايا وكل هذه الأشياء المكتوبة في شروط الاتفاقية سيلتزمون بتسليم الحمراء بقواتها وأبوابها كما هي عليه الآن في حيازة الملك(١)

وفي نص جديد، لرسالة الامتيازات يرد الآتي بعد المقدمة (...):

يتم الإثبات والاتفاق بأنه على أصحاب الجلالة أن يعملوا على تقديم العطايا للملكات: أمه وأخواته وإلى الملكة زوجته وزوجة مولي أبي النصر وتأكيد أن لهن كل البساتين والأراضي والطواحين والحمامات والممتلكات التي لهن في مدينة غرناطة وفي البشرات ليكون كل شئ لهن ولورثتهن خلفائهن بحق الميراث للأبد، وأنه يمكنهن البيع والنقل والتصرف بالشكل والطريقة التي يرونها للمملكات الأخرى للملك المذكور.

ويتم الإثبات والاتفاق على أن كل الممتلكات المذكورة الخاصة بالملك المذكور وبالملكات المذكورات وزوجة مولاى أبي النصر المذكور تكون معفاة من كافة الرسوم التي كانت حتى تاريخ اليوم اعتبارا من الآن وإلى الأبد.

وأمر آخر، ان كل ما أخذه ملك غرناطة وقادته وفرسانه من ممتلكات وعقارات وبساتين وأشياء أخرى سواء بطريق العدل أو بغيره من المسلمين أو المسيحيين في أيام السلم أو في أيام الحرب يأمُرْ أصحاب الجلالة، ومن يخلفهم بعدم مطالبة أي شخص بأي شيء ولابحق السنة من الآن ولافي أي وقت.

---

(١) (Archivo de Herndo de Zafra)

ومما ورد في هذا النص أيضا ويؤكد سيطرة النزعة المادية ما يلي: «لاتدفع رسوم عن الأراضي الأميرية من البساتين أكثر مما كان يدفع عادة عليها، تلك المجاورة للعقارات العامة ولا ترفع الرسوم حيث إنها مجاورة وقريبة من المدينة، ولايحق لأي شخص أن يلحق بها أضرارا، وإن القادة والفرسان كانوا يعتادون على ذلك بخصم أجورهم من الرسوم ولهذا كانوا يكلفونهم أكثر مما كانوا يستحقون».

«- وأمر آخر: إن كل المناطق الآهلة وغير الآهلة والعليا والسفلى وكل مناجم الملح والأشياء الأخرى والموجودة في الملاحات المذكورة وقراها في اسكاثار Escazar واجرون Agron وبيره Beyra ويوكار Yucar وكوبوليه Gopolier وقاسم Gacim ونهرها وولمه Huelme وتيجا رجال Tigargal وقرية الدويار Doyar وقرية البوردا Bordaor وبوفانتيس Bovantes وقرية سورفيان Sorvillan وقرية ديستانبيسا Destanbisa وخارخيليس Jarjilis والمثار Almachar يوقع عليها أصحاب الجلالة والقسم بحق الميراث بأنه يمكننا بيعها أو الاحتفاظ بها أو التصرف فيها، وأن يرثها أحفادنا وأحفاد أحفادنا لكل تلك المناطق الآهلة وغير الآهلة والمراعي، وكل عشيراتها وعوائدها ورسومها، وكل الذين يريدون تعميرها من المسلمين

وأمر آخر، إن كل منطقة العقارين Alecrin ولانخارون Lanjaron بقواتها ورسومها وممتلكاتها وعشيرتها ومناجمها لايدخلها أي أحد معنا ولا في مجالس قضاتها ويلتزم بذلك أصحاب الجلالة من الآن وفي كل وقت.

وأمر آخر، في مقاطعة داليه Dalia ترعى الماشية الخاصة

بالمسلمين في وقت الشتاء .

أمر آخر ، أن تكون ملاحات مقاطعة داليه Dalia مثلها مثل الآتي ذكره وأيضا أراضي قرية أوتورا Autora وديارها وبساتينها وكل طواحينها والأراضي الأميرية والقسم بأن تكون ميراثا لابني محمد وكذلك لابن الوزير وكل قرية بولينا Pullena ، وأن تكون ميراثا أيضا كل تركة محمد بن الحاج في منطقة العقارين Alacrin وفي فريره Ferreyra وبوركير Porqueyra وفي غرناطة بأراضيها وبساتينها وديارها وحقول الزيتون تكون لابني حامدي Hammete لتكون ميراثا له ، كذلك ما تركه أبو القاسم وابن المليح في غرناطة وفي العقارين وفريره وبوركيره لابن الوزير محمد ، ليكون ميراثا له وكذلك قرية جوشار Goxar لابن عمي الجويني لتكون ميراثا له .

أمر آخر أن يمنحنا أصحاب الجلالة مصداقيتهم ويقسموا لنا بشريعتهم ، وأن يلتزم السيد الأمير بذلك معنا من الآن وبعد الآن والى الأبد بألا يخذلنا ، وأن نحظى بالشرف في كل ممتلكاتنا التي نحصل عليها في دار أصحاب الجلالة وفي دار الكونتات وعلية القوم ، وأن يمنح التفويض المناسب بذلك ، وهذا ما نأمله من أصحاب الجلالة ، وكذلك بالنسبة لكل الذين خرجوا معنا من الفرسان بأن يتم إعفاؤهم من الرسوم كما لو كانت ديارنا وممتلكاتنا المعفاة في غرناطة إلى الأبد .

أمر آخر : أطلب من جلالتكم أربع دواب سليمة البنية وبغلتين تكون كل واحدة منهما عالية وعريضة .!!

* * *

ترى: هل كنا على حق عندما ألمحنا إلى أن غرناطة لم تسلم بحرب، ولم تهزم في معركة، وأنها قد بيعت في صفقة مشينة تجسد صورة من أحط صور الخيانة والسعار المادي...؟

إن شروط التسليم، والرسائل التي تبودلت بين الجانبين المتفاوضين -في غيبة الشعب المسلم المقهور- تؤكد أن الأمر كان صفقة تجارية، تخضع للرشاوى المباشرة والهدايا المشبوهة.. وأن الأمر لم يكن خسارة معركة أو سقوط دولة.. بل كان عبادة للمادة، وكفرا بالإسلام.. فالذين سلموا غرناطة -أو باعوها- كانوا قد خلعوا ربقة الإسلام قبل ذلك.. وكانت المفاوضات بالتالي -تتم بين كاثوليكيين من جانب.. وغير مسلمين من جانب آخر!!

وهكذا تضغط عبادة المادة على وجدان الإنسان وعقله حتى تخرجه عن دينه، مهما كان دينه الأزكي والأعلى..

وكما وقع في كثير من الحضارات السابقة، ويقع الآن في الحضارة الأوربية المعاصرة، وفي بعض البلاد الإسلامية المسحوقة فقد وقع -كذلك- في غرناطة..

«سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا»!!

ولله عاقبة الأمور

د / عبد الحليم عويس

رقم الإيداع : ١٩٢٦ / ١٩٩٤ م

I . S . B . N : 977 - 255 - 083 - 0

مطابع الوفاء - المنصورة

شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب

ت : ٣٤٢٧٢١ - ص.ب : ٢٣٠

تلكس : ٢٤٠٠٤ DWFA UN